# إبداع «خديجة»!

ولم تكن امرأة تبدع فى بيتها مثل خديجة!

فقد كانت طاهية.. ونجارة.. وحدادة.. ومهندسة ديكور.. وخياطة ملابس.. ومنسقة زهور وحدائق.. وفنانة تدبير منزلى واقتصاد.. وآية فى الذوق والنظافة.. فكأنما تمسك بعصا سحرية تحيل بها المكان الذى توجد فيه إلى مكان نظيف تنتشر فيه لمسات الجمال.. على قدر الحال!

فمن هى خديجة الساحرة هذه؟

إنها زوجة المفكر الجزائرى الراحل مالك بن نبى.. وهذه الكلمات أو «الأوسمة» التى يضعها على صدرها جاءت كلها فى مذكراته التى أصدرها بعنوان «شاهد على القرن».

فأثارت اهتمامى بها، وشغفت بتتبع «آثارها» عبر صفحات الكتاب الضخم، وكلَّما وجدت إشارة إليها فى إحدى الصفحات وضعت تحتها خطوطًا بالقلم الرصاص.. حتى انتهيت من قراءة

الكتاب، الذى يقع فى 428 صفحة من القطع الكبير . . فوجدت أمامى صورة شبه كاملة لشخصية هذه الزوجة المبدعة . . وتمنيت لو كان مالك بن نبى قد كتب عنها المزيد لتكتمل صورتها فى مخيلتى ويزداد حبى وإعجابى بها على البعد!

تأسرنى دائمًا صورة الزوجة الشابة المحبة المخلصة التى تتحمل مع زوجها صعوبات البداية، ويمضيان معًا على الطريق، محتمين بحب كل منهما للآخر و«إيمانه» به فى مواجهة تحديات الحياة التى تعترض طريقهما، ومن عاداتى «السرية» أن أتأمل دائمًا هذه الصورة الإنسانية لزوجين شابين فى بداية حياتهما . . وأتابع بإشفاق صمودهما أمام التحديات . . ولحظات القوة والضعف البشرى التى قد تعتريهما معًا أو تعترى أحدهما فى بعض المواقف أو الاختيارات، و«أكتئب» للحظات التى تشتد عليهما فيها قسوة الظروف . . وأبتهج للحظات انفراج الأزمات حين يتصوران أن حلقتها قد ضاقت حولهما . . ولم يعد هناك أدنى أمل فى انفراجها . . و«أستبشر» بكل خطوة نجاح يحققها الزوجان فى حياتهما معًا . . وتترطب حياتهما الجافة ببعض لمسات الراحة والرخاء بعد طول حرمان، إلى أن تصل السفينة فى النهاية إلى شاطئ الأمان بعد ملاحة صعبة فى بحر المعاناة . . ويحقق الزوجان طموحهما فى الحياة، ثم يلتفتان فى لحظة التقاط للأنفاس إلى الوراء . . ويقيسان المسافة من البداية الصعبة . . إلى نقطة الأمان

فيجدانها طويلة . . وشاقة . . وممتعة . . وعامرة بالحب والكفاح والعطف المتبادل بينهما .

ويسلم كل منهما للآخر – بينه وبين نفسه وأمام الجميع – بأنه لولا دوره المهم فى حياته . . ولولا مساندته النفسية والعاطفية له و«إيمانه» به حتى فى أحلك اللحظات . . لتحطمت السفينة على الصخور، ولرفع الراية البيضاء متنازلاً عن أحلامه وطموحاته فى الحياة منذ زمن طويل .

وأتصور أن هذا بالضبط ما كان يراود مالك بن نبى، وهو يكتب مذكراته هذه فى عام 68، عقب استقالته من منصبه كمدير عام للتعليم العالى فى بلاده . . وهو منصب حكومى يماثل تقريبًا منصب وزير التعليم . . مفضلاً التفرغ للعمل الفكرى بعد أن توافرت له إمكانيات الحياة المريحة التى تتيح له ذلك، فسال قلمه بهذه الكلمات الجميلة عن زوجته تقديرًا لدورها فى حياته واعترافًا بفضلها!

ولم تكن «خديجة» هذه فتاة جزائرية ولا عربية . . وإنما كانت فتاة فرنسية . . تعرَّف عليها مالك بن نبى خلال سنواته الصعبة بباريس فى أوائل الثلاثينيات، حين كان يدرس بمدرسة اللاسلكى ويتلقى دروسًا مسائية فى الميكانيكا والهندسة . . ويعيش ببضعة فرنكات يرسلها إليه أبوه الموظف الصغير من الجزائر .

وقد ظهرت «خديجة» لأول مرة فى مذكراته فى الصفحة 236 من كتابه . . وفى إشارة مختصرة لا توضح ظروف تعرفه بها ولا كيف تزوجها وهو طالب جزائرى فقير لا يبشر مستقبله فى ظل الظروف السائدة بأى خير . . ولم يزد مالك بن نبى فى تأريخه لزواجه عن قوله فى مذكراته : «كان اليوم يوم جمعة من عام 1931، وقد تولى الله الأمر فهدانى إلى زوجتى وهداها هى فتسمّت باسم خديجة وتولت على الفور زمام حياتى المادية فى البيت» .

ثم توالت بعد ذلك إشاراته المتناثرة إليها فى صفحات الكتاب . . وقد تزوجها بغير علم والديه اللذين أشفق عليهما من زواجه من فرنسية تنتمى للشعب الذى يستعمر بلادهما . . وفى الوقت الذى كانت والدته الحنون فيه قد أعدت له بيت الزوجية فى بيت الأسرة ببلده «تبسة» ورجعت من الأراضى الحجازية بهدايا له ولزوجة المستقبل وللأبناء الذين سيجيئون من عالم الغيب بعد الزواج . . فظل يتكتم زواجه عن أبويه عدة سنوات إلى أن فوجىء برسالة من والدته الطيبة تقول له فيها : لماذا لا تعود لقضاء الشتاء فى بلدك وتحضر معك زوجتك لتستمتعا معًا بدفء الجو فى بلادنا بدلاً من الشتاء القارس فى باريس؟!

ويتوقف مالك بن نبى أمام الرسالة متأملاً ومتعجبًا . . ويفيض قلبه بالحب الصادق والعرفان لوالدته الطيبة . . وقد كانت «المرأة الأخرى» فى حياته، التى ساهمت فى تشكيل وجدانه . . وساندته

بحبها العظيم فى كفاحه . . ولم تفقد «إيمانها» به لحظة . . ورغم أنها غادرت الحياة وهو لم يضع أقدامه بعد على أول طريق النجاح .

وبعد وفاتها - وهو غائب عنها فى فرنسا - لاحظت خديجة عليه أنه قد ظل لعدة سنوات بعدها يبكى خلال استغراقه فى النوم، ويستيقظ فى الصباح فيجد وسادته مبللة بقطرات من الماء دون أن يعرف سببًا لذلك، حتى فسرته له خديجة وهى تواسيه وتخفف عنه وتزداد له حبّا وإعجابًا بوفائه لأمه .

وخلال سنوات إقامته فى باريس حاول مرارًا أن يجد عملاً ينفق منه على نفسه وزوجته، فلم يجد إلا الأبواب الموصدة أمامه وأمام غيره من أبناء بلده المستعمر .

وكان يجمع بين الدراسة فى معهد اللاسلكى والدراسة الليلية للهندسة والميكانيكا وبين العمل الفكرى والاهتمام بقضية بلاده . . وقضية الدين فى مواجهة طوفان محاولة طمس الهوية الجزائرية . . أما خديجة فقد راحت «تتفنن فى توفير وسائل الراحة لى فى البيت حتى من الناحية الفكرية» .

وأما البيت الذى يقصده فقد كان وقتها غرفة مفروشة بلا ماء ولا حمام . . ويشتركان مع بقية سكان المبنى فى صنبور للماء وحمَّام وحيد للجميع، ورغم ذلك - وكما يقول - «فلقد لبثنا طويلاً نستنشق عبير هذه السعادة البسيطة الجادة فى حياتنا» .

وكان مالك بن نبى يستقبل فى مسكنه مساء كل جمعة صديقين له من أبناء بلده المهتمين مثله بالعمل الوطنى، فيتناولان معه العشاء ويتفرغان بعده للتداول فى شئون بلدهم وقضية الدين.

وكانت زوجته - كما يقول - «تصنع المعجزات خلال أيام الأسبوع لكى تدَّخر تكاليف هذه المائدة الأسبوعية.. فتصنع لنا أكلة من العدس ولسان الضأن تجيد صنعها تمامًا.. لترضى الضيوف بأقل التكاليف، فكنَّا - والحق يقال - نلتهمها التهامًا - وبعد العشاء تبدأ جلسة العمل، فتجلس زوجتى فى ركنها المفضل بالغرفة بعد أن تقدم لنا القهوة.. وتجلس قطتنا «لويزة» فوق ركبتها، بينما تستأنف خديجة أشغال الإبرة وهى تتابع مناقشاتنا فى صمت.. وكانت لصديقى «حمود» عادة غريبة هى أن يضع قطعة من السكر فى فنجان القهوة ويظل يحرِّكها بالملعقة طوال فترة حديثى إليه، فإذا تحدث هو توقف عن تحريك الملعقة، ثم أعود للكلام فيضع - دون أن يشعر - قطعة سكر جديدة ويحركها.. وهكذا طوال المساء دون أن يشرب القهوة، وكان ذلك يمتعنى إلى حد كبير؛ إذ كنت أتخيَّل «مشاعر» زوجتى الجالسة فى الركن وهى ترى قطع السكر تذوب واحدة بعد الأخرى فى فنجان القهوة بلا فائدة.. مما يتعارض مع مبادئها فى التدبير والاقتصاد.

وكان محور مناقشات مالك بن نبى مع ضيفيه، ومع غيرهما من أبناء بلده، هو الأصالة.. والتمسك بالإسلام فى مواجهة طوفان

التغريب وزلزلة القيم الدينية الذى يمثله الاستعمار . وقد انتهى من بحثه الفكرى الطويل إلى حقيقة . . حرص على تأكيدها والدفاع عنها معظم سنوات حياته وهى : أن كل مجتمع يفقد حضارته يفقد بذلك كل أصالة له فى التفكير ، أو فى السلوك أمام أفكار الآخرين ، وبالتالى فإنه يتقبل أفكارهم دون مراجعة أو تدقيق ويقلِّد سلوكهم دون تروٍّ أو اختيار .

وكانت خديجة تشاركه الإيمان بهذه الحقيقة وتدافع عنها بإخلاص . . وقد اصطحبت زوجها إلى الريف الفرنسى لتعرِّفه بأمها الأرملة وزوجها . . فكانت فرصته الحقيقية لكى يعرف الوجه الأصيل للحضارة الفرنسية ، التى كان يتخذ منها موقفًا عدائيّا قبل أن يتعرف عليها فى منابعها الأصيلة . . ويلمس قيمها الأساسية فى الجدية والعمل والحياة والعلاقات الإنسانية وإعلاء قيم التفكير المنطقى وتذوق الثقافة والجمال والنفور من كل ما يسىء للذوق .

ويروى مالك بن نبى ـ فى هذا الصدد ـ واقعة طريفة عن زوجته . . ففى إحدى رحلاتها بين فرنسا والجزائر ، طلب منها رجل الجمارك أن تفتح حقيبتها أمامه ليفتشها . . واستجابت لطلبه . . فما أن شاهد الموظف ترتيب محتويات الحقيبة الدقيق والجميل أيضًا حتى رفض أن يدس يده فيها ويشوه ترتيبها الرائع وقال لها : أغلقى حقيبتك يا سيدتى . . فلست أستطيع أن أفسد هذا التكوين الجميل !

وكان من برنامج يومه خلال إقامته مع زوجته فى باريس أن يعود فى المساء عقب انتهاء دروس المدرسة ، فيجلس مع زوجته بعض

الوقت يشربان الشاى ويتجاذبان أطراف الحديث حول القضية الجزائرية . . أو الدين ، ثم يصلى المغرب ويتلو من المصحف بعض آيات الذكر الحكيم ، «فكان يروق لخديجة أن تستمتع لما أتلو من القرآن دون أن تفهمه بطبيعة الحال . . لكنها كانت تتذوق جَرْس القرآن نفسه ، وقد يحدث أن تطرح سؤالاً فى الدين كسؤال المريد المبتدئ لشيخه . . أو تلفت انتباهى للقيم الأخلاقية المشتركة بين الإسلام والمسيحية . . أو تلفت نظرى إلى أشياء قد تبدو بسيطة ولكن لها دلالتها . . فلقد لفتت نظرى أكثر من مرة إلى أن قطتنا «لويزة» حين تقفز إلى المائدة ، وتسير فوقها لتذهب إلى خديجة فى الناحية الأخرى ، والمصحف مفتوح على المائدة بيننا ، فإنها كانت تتجه دائمًا إلى يمينه أو يساره كأنما تتفادى عن عمد أن تضع أقدامها على المصحف . . وهى فى طريقها إلى ركبتى سيدتها ! »

ومع أن خديجة كانت تعيش مع قطتها «لويزة» أكثر ممَّا تعيش معه ، كما يعترف هو بذلك . بسبب فترات دراسته الصباحية والمسائية . وفترات استذكاره الطويلة فى الليل حتى الثانية صباحًا كل ليلة . . وفترات صمته الطويل . . ومعاناته مع العلوم الرياضية ، التى كانت تصل به أحيانًا إلى حد البكاء حين يحتدم الصراع بينه وبين مسألة رياضية معقدة فإنها لم تشك قط من وحدتها ولا من جفاف حياتها وخلوِّها من أى ترويح أو تسلية . . ولا أيضًا من قلة الأوقات التى يتفرغ لها فيها زوجها ، وإنما كانت تتركه ليصارع

دروسه الرياضية على المائدة الوحيدة بالغرفة . . وتجلس هى فى ركنها المفضَّل من الغرفة وقطتها فوق ركبتيها وتشغل وقتها «بمصارعة» كتاب بالفرنسية عن الدين . . أو بتطريز مفرش صغير . . أو صنع بلوفر شتوى لزوجها أو لنفسها أو حتى لقطتها . . وقد احتاج زوجها ذات يوم إلى مقابلة مسئول فرنسى سعيًا وراء الحصول على عمل مناسب له . . ولم تكن لديه بدلة لائقة لمثل هذه المقابلة . . فلم تدعه زوجته لهمومه طويلاً، وإنَّما خرجت على الفور واشترت بمعظم مصروف البيت قطعة قماش صوفية رخيصة من سوق الفضلات . . وبجرأة، تحسدها عليها كثيرات، نقلت عن مجلة أزياء قديمة «باترونا» لبدلة رجالية . . ثم أعملت مقصها فى القماش وخاطته على ماكينتها . . فإذا بالقماش يستوى بدلة رجالية لا بأس بها . . ارتداها زوجها وهو لا يصدِّق نفسه . . وذهب إلى المقابلة، التى لم تسفر عن تحقيق أمله، لكنها كشفت له عن موهبة جديدة ودفينة من مواهب زوجته المحبة.

كذلك أيضًا لم تشك خديجة من طول فترات صمت زوجها المهموم بدراسته ومشاكله وقضايا بلاده ودينه . . وإنما أشفقت عليه منها وأرادت أن تدفع عنه الاكتئاب قبل أن يتمكن منه . . فألحَّت عليه أن يتوقف عن الاستذكار مساء كل سبت، وأن يخرج إلى أصدقائه فى الحى اللاتينى . . ليروِّح عن نفسه، ويتسلَّى معهم بعض الوقت عن جفاف الحياة وعناء الدراسة المتواصل طوال الأسبوع . .

ويستجيب الزوج الشاب «لرجائها» إرضاءً لها ويخرج إلى أصدقائه ويترك وراءه زوجته فى الغرفة المفروشة الفقيرة التى أحالتها زوجته بلمساتها الساحرة إلى واحة للذوق الجميل . . والحب الدافئ المعطَّر بأنفاس المشاركة والوفاء والعطاء .

وتظل خديجة دائمًا مع زوجها تخفف عنه عناء الحياة وتشد من أزره كلَّما ضعف أو ضاق بالأزمات المستحكمة حوله . . و«تؤمن» به دائمًا فى أصعب الأوقات ، وتؤكد له إيمانها الذى لا يتزعزع ، بأنه على حق فى موقفه من الحياة ومن كل ما يؤمن به من مبادئ وأفكار . . وتوغل السفينة فى بحر العناء وتصمد لكل العواصف والأنواء . . إلى أن تصل سالمة فى النهاية إلى شاطئ الأمان ، ويحقق مالك بن نبى ما كان يراوده ، وهو شاب صغير فقير من أحلام ، لخدمة مجتمعه وبلاده والفكر العربى . . ويجلس ليكتب مذكراته ، فتطل عليه من الأوراق صورة زوجته المحبة العطوف !

ألا ترانى محقّا بعد ذلك فى «حبى» لخديجة هذه . . ولكل «خديجة» مماثلة تبدع مثل إبداعها . . وتؤمن دائمًا بزوجها وتؤدى فى حياته نفس هذا الدور العظيم .